التنوع الثقافي في المشرق العربي: جذوره، حاضره ومستقبله

د. علاء أبوعامر*

تُعتبر منطقة الشرق الأوسط، وبالقلب منها المشرق العربي منبع الحضارات والأديان والثقافات، هنا بدأ الإنسان يتلمس خطواته الأولى بعد انفصاله عن الحياة الحيوانية الوحشية، وبعد أن غادر الكهوف وعرف الاستقرار وبناء القرى، عاش في تجمعات صغيرة. وهذه التجمعات كانت بحاجة إلى فلسفةٍ وقانون يُجمع عليه هؤلاء البشر. إن الحاجة إلى الوحدة وخلق نمط تفكير إيماني مشترك دفع الأنسان إلى التفكُر والتأمُل في الكون بكل ما فيه من نجومٍ وكواكبٍ وظواهرٍ، بالأشجارِ والأحجارِ والحيوانات، وبالماء من أنهارٍ وبحارٍ وينابيع، وبالزلازل والبراكين وبغيره. كان عليه التفكر إياً من هذه الأشياء إلهه ، ولأن الإيمان بالإله الخالق مزروع داخل النفس الإنسانية فإن رحلة البحث عنه أخذت سفرا طويلا لإيجاده. وقد وجدهُ الإنسان في عدة أشكالٍ وأحجامٍ، ومثّله وفق التصورات التي حسبها الصورة الأجمل له ومن ثم جعله يتجسد في الظواهر، مثل البركان فجعل له ناراً موقدة في معابده وتخيله في الزلزال المرعب وفي البرق والرعد والمطر، وجعله في القمر الذي يُنير الليل، وكذلك جعلهُ في الشمس مصدر النور الأزلي صاحبة الدفء ومنمية الزرع ومنيرة العالم ، ومُبخرة البحار لتجعله ماءً ينزل مطرا يسقي الزرع والإنسان، ومن ثم جعل الكواكب آلهة صغيرة تدور في فلكه. من هنا نتج لدينا سبعة من الآلهة (الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل) الشمعدان ذو الشموع السبعة ، وجُعلت أبراج السماء الاثني عشر ملائكة لهذه الآلهة فقُدست ومنحت أسماؤها لأشهُر السنة (كالحمل والعقرب والجدي والحوت ..الخ) وهو ما نجده حتى الآن في السنة الفارسية، وأصبحت أسباطا

* مفكر وباحث فلسطيني.

مقدسة في العالم القديم ولدى اليهود والمسيحيين وفرق الشيعة من المسلمين وأُختصرت في ثلاثٍ في الهند فيما يسمى بالاقانيم الثلاثة وفي المسيحية فيما سمي بالثالوث المقدس، وجاء الإسلام المحمدي باعثا للإسلام الإبراهيمي القديم الذي أنشأه آدم الرسول لينسف فكرة الوثنية كلها، وينزه الإله الخالق بأنه واحد أحد وليس كمثله شيء. أُعتبر الإسلام قمة ما انجزه العقل البشري الموحى له من السماء ، حيث جعل الإسلام من العقل أداةً للتفكير والتأمل والمقارنة ومع ثقة الرسول محمد وخلفائه بعدالة قضيتهم وسمو ايمانهم إلا أنهم جعلوا الحوار والجدال الحسن هو الطريق الأوحد لإقناع الأخر وجذبه نحو دينهم. وقد أكد القرآن أن الاختلاف والتنوع هو آية من آيات الله "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" (الروم:٢٢) ويقول تعالى:" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (يوسف ١١٨) وفي قوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"(الحجرات ١٣). وبالرغم من كل هذه الفروق والاختلافات بين البشر أخبرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الله لا يفرق بين عباده، إلا على أساس التقوى فقط، وذلك في قول الرسول: «لا فرق بين عربي وأعجمي ولا أبيض ولا أحمر إلا بالتقوى».

- **فلسطين أرض الرسالات:**

كانت فلسطين هي المصدر الأول لكل ما نتج من أديان وفلسفات دينية عمت الكون فيما بعد تحت مسميات شتى، لا نكاد نميزها اليوم إلا باسم الإله أو النبي الذي تسمت هذه الأديان والفلسفات باسمه.

ويُعتقد أن أول الأديان نشأت مع نشأة الحضارة والاستقرار البشري وبناء القرى، وقد نشأت أول حضارة في التاريخ في منطقة وادي النطوف في تلال فلسطين المحيطة بالقدس والتي امتدت إلى أريحا والساحل الجنوبي لفلسطين، وفي أريحا تحديدا يمكننا أن نسجل بناء أول معبد.

- **إنسان فلسطين مؤسس الاعتقاد بحياة ما بعد الموت:**

وتميز النطوفيون بمجتمع منظم وعرفوا بدايات الاستقرار وبناء المساكن وخزنوا الحبوب البرية وبدأوا في استئناس حيواناتهم واهتموا بدفن موتاهم ووضع أمتعة معهم وبنوا مقابرهم بجوار مساكنهم. ويرجح أن إنسان ذاك العصر قد أهتدى إلى نوع من العقيدة،

وعرفوا الآلهة، التي اعتقدوا في حمايتها للمواشي والحقول، وقدسوا الأرواح التي استعانوا بها في الصيد، وعبدوا القمر الذي كانوا يرعون قطعانهم على ضوئه في الليل.

وقد عُثر على عدد من المقابر الفردية والجماعية التي تؤكد اعتقاد الإنسان في الحياة الأخرى في هذه المرحلة. بل واهتموا بشكل خاص بمدافن ذوي المكانة عندهم كمدفن زعيم العشيرة في عين الملاحة. ونحتوا التماثيل الآدمية والتي أميزها تلك التي تجسد الأزواج المتعانقة من طين صخري وأهم ما يميز النطوفيين هي طريقة دفن موتاهم فقد كانوا يضعون جثث موتاهم تحت المناطق المأهولة بالسكان. ففي مغارة الواد دُفن أكثر من ستين فرداً في أرض المغارة أو أمامها. وكانت جثة الميت توضع على جانبها، وكانوا أحياناً يدفنون جمجمة الميت فقط دون الجسم. وقد عُثر على قلائد وحلى مصنوعة من الصدف وعظام الغزلان، مرتبة على شكل حلقات حول رأس الميت. أما في عين المالحة فقد عُثر على صبغة المغزة الحمراء (أكاسيد الحديد) في عدة قبور. ومن أهم هذه القبور يُعتقد أنه لرئيس قبيلة، وكان فيه هيكلان عظميان، أحدهما لرجل والآخر لامرأة على رأسها بعض الصدف. وكانت الجثتان محاطتين بطبقة من الطين ومغطاتين بالتراب تعلوه طبقة من الحجارة المرصوفة. ويحيط بالقبر صف دائري من الحجارة الكبيرة نسبياً.

أما إنسان الكرمل الفلسطيني فقد كان يدفن موتاه بعناية، ويدفن معهم أدوات حجرية وأوانٍ، وفي أحيان كثيرة كانت تدفن معهم كلابهم وهذا يدل على أن إنسان فلسطين الذي انحدر منه الإنسان العروبي (السامي) كان يؤمن بحياة ما بعد الموت في العصور الحجرية ابتداءً من ٢٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهذا يعني أن الإنسان في جيناته وعقله الباطن كان يملك معلومةً ورثها عن أجداده تؤكد بأن هناك حياة ما بعد الموت، وقد عمت هذه العقيدة معظم الشرق العربي من أقصاه إلى أقصاه.

• الهندوسية ابنة الشرق العربي لا الهند:

إلى جانب العقيدة الفلسطينية نشأت عقيدة أخرى اختلفت مع هذه العقيدة الفلسطينية (العروبية-السامية) في الكثير من مفرداتها وقوانينها ومعبوداتها. نشأت في شمال شرق سوريا وهي الديانة التي عرفت فيما بعد بالهندوسية والتي أنشأها الآريون الذين عرفوا في الشرق العربي بالحوريين. وعلى ما يبدو فإن جذور هذه الديانة، قبل أن تصبح حورية، كانت سومرية فالإله أندرا الإله الرئيسي فيها كان إلها أساسياً ضمن آلهة السومريين القدماء قبل الدمج السومري الأكادي، فقد آمن هؤلاء بالآلاف من المعبودات والآلهة

وعلى رأسها أندرا الذي يترأس مجمع الآلهة الهندوسية وهذه الديانة تختلف مع ديانة العروبيين(الساميين) في أنها تؤمن بتناسخ الأرواح وهو الاعتقاد بأن الكائن الحي بعد موته يعود للعيش بجسد مختلف سواء من ذات الفصيلة أو غيرها، فليس من الضروري أن يرجع الإنسان ليعيش في جسد إنسان بل من الممكن أن يعيش في أي صورة أخرى للكائنات الحية، وليس من الضروري أن يعيش على الأرض بل هناك عوالم أخرى يمكن العيش عليها.

هذا الاعتقاد هو اعتقاد راسخ وجوهري في الحورية الشامية قبل الميلاد ومازال مستمراً في عقائد الدروز والعلويين والإسماعيليين وفي البوذية والهندوسية. وعرفته مصر القديمة وفلسطين في مرحلة السيطرة الحورية عليهما، وله حضور في معتقدات مناطق مختلفة من العالم كسكان ألاسكا الأصليين وبعض القبائل الإفريقية. وتناسخ الأرواح رائج لدى بعض الأوساط الغربية اليوم خاصة لدى أصحاب ما يُسمى بالـ New age.

• الإيمان بحياة ما بعد الموت وفلسفة البعث والتناسخ في المشرق العربي:

نشأت هاتان الديانتان الكبيرتان، الإسلام الحنيف الموحد المتسلسل من آدم الرسول مروراً بشيث وإدريس ((هرمز)، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد هذا الدين الذي لا يؤمن إلا بإله واحد أحد تحيط به الآلاف المؤلفة من الملائكة الخدم الخاضعين لإرادته وهم مخلوقات نورانية لا تعصي لله ما أمرها. والهندوسية أو الهندوكية وهي مستمدة من اسم الإله أندرا ومنه اشتقت كلمة هند INDIA والتي تؤمن بأن هناك إلهاً أساسياً، يشاركه المُلك إلهان آخران، هما الآب والأم، ومن هؤلاء تتكون الأقانيم الثلاثة أو الثالوث المقدس (التيري مورتي) ولكن من هؤلاء أنبثق أيضا إلهان أخران أصغر وأقل شأناً هما الابن والابنة ويحيط بهؤلاء الخمسة مجموعة من الآلهة الصغيرة، والتي هي ليست إلا صوراً متنوعة للآلهة الخمسة الأساسية.

وعندما بدأت الشعوب العروبية (السامية) في الاندفاع شمالا وشرقا وعبر البحار في غزواتها أو فتوحاتها سَبت نُخباً من هذه الشعوب الهندوأوروبية وأسكنتها في العراق والشام ومصر وفي المقابل فعلت ذلك الشعوب الهندوأوربية عندما ردت الغزو بالغزو والفتح بالفتح، حيث سَبت النخب أيضا وأسكنتها وسط شعوبها، فتلاقحت الشعوب وتلاقحت الثقافات وتكونت ديانات جديدة أخذت من هذا وذاك، وأنعزل غيرها وأسس ديانات الأسرار التي جُلها وُجد في فلسطين وسوريا والعراق.

• من المعابد نشأ الصراع:

ومع إنشاء المعابد وطبقة رجال الدين انبثق الصراع الديني فالمعبد هو مصدر ثروة وإثراء لرجال الدين وهو مصدر كسب مادي ومعنوي، مادي من خلال التقدِمات من الكباش والعجول ومن النذريات النسائية من خلال الدعارة المقدسة التي تُقرب الإنسان من الخالق بممارستها مع قديسات المعبد مقابل دفع مادي يذهب لجيوب الكهنة، لذلك كان الخروج عن طاعة رجال الدين وعدم الالتزام بالمعبد يعني حكم الموت على ذاك العاق، وقد أدى ذلك لهروب العشرات من المؤمنين، خصوصاً من النخب الثقافية والفكرية، التي أنشأت مع الوقت شرائح النساك والدراويش والمتعبدين والرهبان الذين هجروا المدن والتحقوا بالجبال وسكنوا الكهوف، والذين اختاروا حياة التقشف للتقرب إلى الله ، من هؤلاء النُساك خرج حكماء وفلاسفة أثروا الديانات القديمة وأنشأوا ديانات جديدة فلسفوا لها نظريات إيمانية غاية في الروعة والجمال.

• الرفائيون السلالة الفلسطينية المقدسة:

من هؤلاء النُساك على ما يبدو خرجت الصابئة الرفائية الفلسطينية(بمعنى الصالحين أو المُصلحين من فعل رفا بمعنى أصلح وهم سلالة فلسطينية كنعانية مقدسة من رموزها أبي مالك وعوج بن عناق وجليات وأيوب وبلعام بن بعور وإلياس واليسع، وتذكر ألواح أوغاريت أحدهم باسم دانيال الرفائي، وقصته هي صورة طبق الأصل عن قصة إبراهيم عليه السلام في ملحمة أقهات الشعرية الأوغاريتية) ويُعتقد أن رأس هذه الطائفة أو السلالة الدينية كان ملكي صادق ملك السلام[1] الذي استقبل إبراهيم الخليل وباركه باسم إيل (خالق السموات والأرض) وسميت فيما بعد هذه الطائفة الدينية بالصابئة المندائية التي عاشت على ضفتي نهر الأردن بدايات القرن الأول الميلادي وكانت في عزلة عند شواطئ البحر الميت ومحيط مدينة القدس في وادي قمران، وهاجرت في مرحلة ما من التاريخ مع الملك الفرثي أدريان إلى شمال العراق ومن ثم انحدرت نحو مستنقعات جنوب العراق، وهي تؤمن بتعاليم النبي شيت ويوحنا المعمدان.(تاريخ ابن خلدون) وهم يختلفون عن صابئة الرها بأنهم موحدون يعبدون إلها واحدا ويؤمنون بالأنبياء، أما صابئة الرها، فإنهم مجوس يعبدون النار والكواكب والنجوم ولا يوجد بينهما مشترك غير التسمية.

• ديانة أخناتون هي ديانة الحوريين السوريين:

إبان السيطرة الحورية الهندوسية على فلسطين ومصر وبلاد الشام أعلن الملك الحوري

المصري أخناتون (ابن أدون-أدونيس) الذي تنتسب والدته إلى الأصول السورية – الفلسطينية عن توحيده للآلهة في قرص الشمس (أدون-أدونيس) وأُعتبر من قبل بعض الباحثين أنه أسس ديناً جديداً مع أن هذا الدين عاش في بلاد الشام والعراق والقوقاز مئات السنين قبل أخناتون.

• اليهودية سليلة الحورية الهندوسية:

وليس بعيداً عن وادي قمران في منطقة يهودا (محيط القدس –بيت لحم) طور الآريون الحوريون بعضا من تعاليمهم لتتناسب مع الظروف التي عاشتها المنطقة في ذلك الوقت خصوصا انبثاق ديانة التوحيد من جديد على يد موسى النبي عليه السلام في شمال الحجاز ولجأوا لمبدأ التقية أي إظهار شيء وإخفاء جوهره[٢].

ونشأت الديانة التي سُميت فيما بعد باليهودية واكتسبت اسمها من المكان أي إقليم يهودا الفلسطيني زمن الاحتلال الفارسي لفلسطين والمشرق العربي بشكل عام، والتي ليست سوى نسخة جديدة من الهندوسية-المجوسية في ثوبٍ جديدٍ والتي تحدث عنها الباحث الإسرائيلي "إسرائيل شاحك" ووصف عباداتها ومعبوداتها وتعاليمها، وأماط اللثام عن أسرارها في كتابه "اليهودية وطأة ثلاثة آلاف عام" بقوله:" "بحسب اليهودية لا يحكم الكون إله واحد بل عدة آلهة ، لها شخصياتها وتأثيراتها المختلفة ، منبعثة من العلة الأولى النائية والمعتمة ، وقد أنبثق أو وُلد من العلة الأولى ، إله ذكر أولاً، يدعى " الحكمة " أو " الأب "، ثم آلهة أنثى تدعى " المعرفة " أو "الأم" وقد وُلد من اقتران هذين الاثنين، زوج من الآلهة الأصغر: " الابن "، وتُطلق عليه أسماء عديدة من بينها (الميثروثون من ميثرا) " الوجه الصغير" أو " المقدس والمبارك " و" لابنة " وتسمى أيضاً، " السيدة " أو " ماترونيت " (تأنيث ميثرا وهو إله حوري -هندوسي) و " شخينة " و " الملكة " ، وما إلى ذلك من أسماءٍ. وعلى هذين الإلهين أن يتحدا، ولكن مكائد الشيطان، وهو شخصية مهمة ومستقلة في هذا النظام، تمنع اتحادهما. أما الخليقة فقد تولتها العلة الأولى من أجل أن تُتيح اتحادهما، ولكنهما يصبحان على شقاقٍ أكبر من أي وقت، بسبب السقوط، وقد تمكن الشيطان فعلاً، من الاقتراب كثيراً من الابنة الإلهة وتمكن حتى من اغتصابها (إما في الظاهر أو في الواقع – فالآراء تختلف حول هذا الأمر).

أما خلق الشعب اليهودي فقد جرى من أجل إصلاح الكسر الذي سببه آدم وحواء، وقد أُبرز ذلك لبرهة قصيرة تحت جبل سيناء: الإله الذكر الابن، الذي تقمص موسى، اتحد مع

الآلهة شخينة ولسوء الحظ فقد تسببت خطيئة العجل الذهبي مرة أخرى، بشقاق في الألوهة إلّا أن توبة الشعب اليهودي أصلحت ذات البين إلى حدٍ ما، وعلى نحو مماثل، يُعتقد بأن كل حادثة في التاريخ اليهودي التوراتي مرتبطة باتحاد الزوج الإلهي أو بشقاقه ، وإن (الفتح اليهودي) لفلسطين والاستيلاء عليها من الكنعانيين ، ثم بناء الهيكلين الأول والثاني، هما أمران ملائمان بصفة خاصة لاتحادهما ، بينما تدمير الهياكل ونفي اليهود عن الأرض المقدسة، ليس إلا مجرد إشارات خارجية تدل لا على الشقاق الإلهي فحسب، بل أيضاً على "العدو الحقيقي وراء البغاء مع آلهة غرباء ": فالابنة تكاد تقع في قبضة الشيطان، فيما يصطحب الابن شخصيات أنثوية مختلفة إلى فراشه، بدلا من زوجته الحقيقية .

وواجب اليهود الأتقياء أن يعيدوا بواسطة صلواتهم وطقوسهم الدينية الوحدة الإلهية الكاملة، بشكل اتحاد جنسي بين الإله الذكر والإلهة الأنثى. وهكذا تتلى الصلاة اليهودية التالية قبل أداء معظم الأفعال الطقوسية، التي ينبغي لكل يهودي ورع تأديتها عدة مرات في اليوم: " من أجل الجماع الجنسي المقدس المبارك وشخينته .... " وقد رتبت صلوات اليهودية أيضا، بحيث تُشجع على هذا الاتحاد الجنسي، ولو مؤقتاً، فحسب. وتتطابق أجزاء من الصلاة تطابقاً صوفيا، مع المراحل المتوالية لهذا الاتحاد: ففي لحظة من اللحظات، تقترب الإلهة مع جارياتها، وفي لحظة أخرى يضع الإله ذراعه حول عنقها ويداعب صدرها، وفي نهاية المطاف، يفترض أن تكون عملية الجماع قد حصلت.

فالصلوات والطقوس الدينية الأخرى، بحسب تفسير حاخامات اليهود، مكرسة لخداع ملائكة مختلفين (متخيلين كآلهة ثانوية تتمتع بدرجة من الاستقلال)، أو لاسترحام الشيطان، وعند لحظة معينة في صلاة الصباح، تتلى بعض الآيات بالآرامية (عوضاً عن العبرية المعهودة أكثر). ويفترض أن تكون هذه التلاوة وسيلة لخداع الملائكة الذين يشغلون البوابة التي تدخل منها الصلوات إلى السماء، والذين يملكون القوة على سد الطريق في وجه صلوات الأتقياء فالملائكة لا تفقه إلا العبرية وتستعصي عليها الآيات الآرامية ولأنها بليدة الذهن إلى حد ما (إذ يفترض بأنها أقل حذاقة من الحاخامات)، فإنها تفتح البوابة، فتدخل لحظة فتحها، الصلوات بما فيها الصلوات كافة التي تليت بالعبرية.

- **صراع الإيلية الحنيفية والحورية الهندوسية وتناسلهما في فلسطين:**

وقبل ذلك بفترة أي في القرن الثامن قبل الميلاد انشقت جماعة حورية عن معبد القدس المجوسي وأنشأت معبد جرزيم وسميت الطائفة بالسامرية نسبة إلى مدينة السامرة -

سبسطية جنوب نابلس الحالية. وفي الفترة ما قبل الميلاد وجدت في فلسطين أربعة طوائف في منطقة جنوب الضفة الغربية هي الصدوقيون وهم جماعة من المجوس (يؤمنون بالتناسخ ويقولون لا قيامة)[٣] والفريسيون وهم من بقايا اتباع النبي موسى، النبي العربي المدياني - الحجازي[٤] كان إيمانهم قد دخله العديد من البدع والتحريف[٥] وجماعة وادي قمران الذين أطلق عليهم البعض تسمية الآسينين وهم الصابئة المندائية الذين هاجروا إلى جنوب العراق بالإضافة إلى السامرة في جبال شمال الضفة الغربية لنهر الأردن.

وقد تواجدت بالإضافة لذلك عشرات الجماعات التي كانت تؤمن بديانات سرية على رأسها ديانة ميثرا التي كانت قد غزت الإمبراطورية الرومانية والفارسية وعدة أقاليم حتى وصلت مع التجار الفينيقيين إلى بريطانيا وإسبانيا. والكثير من المذاهب الكنعانية التي انتشرت في مدن فلسطين وسوريا ولبنان من غزة إلى عسقلان وصور وصيدا وجبيل وأوغاريت وغيرها.

وانبثق من تلاقح الديانات ومن بعض اشتقاقاتها ديانات تعبد فرج المرأة والعضو الذكري للرجل باعتبارهما مصدرا للحياة وهي ديانات اشتُقت من ديانات الحوريين والحثيين والكاشيين -الهندوس الذين استوطنوا بالإضافة إلى هضاب الضفة الغربية وجبالها معظم جبال لبنان والساحل السوري وحتى حلب ومناطق البلخ والخابور في الجزيرة السورية موطنهم الأصلي، والذي انطلقوا منه مكتسحين الهلال الخصيب ومصر.

• صراع الإيلية الحنيفية الرفائية مع الحورية الهندوسية في عقيدة المسيح وبولس:

في القرن الأول الميلادي أو بعده بقليل خرج إلى العالم ابن الإنسان الملاك عيسى المسيح عليه السلام من معبد كنعاني -فلسطيني رفائي على جبل الكرمل في بيت لحم الجليلية[٦]، وليس كما هو شائع بأنه يهودي ولد في بيت لحم يهودا، فمن المعروف أن النساء يُمنعن من الدخول إلى المعابد اليهودية كونهن كائنات نجسة بنظرهم، ولكن الإنجيل ويدعمه القرآن يقول إنها أي مريم أم المسيح كانت تتعبد في معبد، وزارها الملاك جبرائيل وهذا المعتقد هو معتقد إيلي كنعاني حنيفي، ليس له علاقة بدين اليهود ومعتقداتهم[٧] وحاول الرجل النبي إعادة إحياء دين إبراهيم وعمل على إعادة إحياء الإيمان لدى الطائفة الفريسية التي هي بحسب قوله ورثت كرسي موسى عليه السلام إلا أن أصحاب معبد القدس من اليهود المجوس تأمروا عليه هناك، يقول كتبة الأناجيل بأنه صُلب وقُتل، بينما يقول الله عز وجل في القرآن أنه لم يُصلب ولم يُقتل، وهذا خلاف المسيحيين مع المسلمين في قصة لن تُحسم أبداً.

وقد لوحق اتباع المسيح كما لوحق من قبلهم يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) والصابئة المندائية من قبل أصحاب معبد أورشليم حيث زُج بعضهم في السجون وبعضهم قُتل، ومن بعد عيسى آمن بيسوع القديس بولس الذي أنشأ ديانة جديدة اسماها المسيحية في انطاكية وكان قد أدعى أنه أُوحي إليه بإنجيل جديد غير إنجيل عيسى (أنظر سفر غلاطية) وهكذا نشأ دين جديد هو خليط من العقائد الثلاث التي كانت تتصارع في جنوب الضفة الغربية لنهر الأردن، ونقصد الصابئة المندائية والفريسية الموسوية والمجوسية الصدوقية، وقد حمل هذا الدين في طياته حنيفية عيسى وإيمانه بإيل الواحد الأحد ولكنه وفي مفارقة أخرى آمن بالثالوث المقدس (التري مورتي الهندوسي) وبالصليب الهندوسي وأصبحت قصة عيسى ومولده كقصة كريشنا ومولده من العذراء ديفاكي، وحتى انعقاد المجمع أو المؤتمر المسكوني الخامس في القسطنطينية والذي عقد في سنة ٥٥٣ م (من تاريخ ٥ أيار ولغاية ٢ حزيران من نفس السنة) آمن المسيحيون بالتقمص وتناسخ الأرواح, وكان الفيلسوف والعالم المسيحي أوريغينيس (أوريجين) الإسكندراني ١٨٥ - ٢٥٤ م والذي كان رئيس مدرسة اللاهوت في الإسكندرية بمصر أول من كتب وحلل موضوع التقمص في المسيحية، وتبعه في ذلك الكثير من الكهنة وعامة الشعب. ولكن في المجمع المذكور سالفاً والذي لم يحضره بابا روما (وهذا المجمع الأول والوحيد الذي لم يشارك به بابا روما)، تقرر إلغاء الإيمان بالتقمص وهدر دم كل مسيحي يؤمن بالتقمص واعتباره خارجاً عن الديانة المسيحية وإعدامه حرقاً. وهذا ما حل بالراهب الدومينيكاني "جوردانو برونو" (١٥٤٨-١٦٠٠م) الذي قُدّم إلى محكمة الإعدام الكنسية وأعدم حرقاً في ١٧ شباط من سنة ١٦٠٠م بسبب معتقداته الفلسفية والدينية الخاصة حول التقمص وتناسخ الأرواح. وحسب المصادر والمراجع يقال بأن السبب في إلغاء الإيمان بالتقمص في الديانة المسيحية هو خلافات داخلية بين الأساقفة وآخرين، حيث يقولون بأن السبب هو ديني صرف.

ونشأت من بعده فرق وأناجيل قبل وبعد مجمع نيقية ٣٢٥م وما نراه اليوم من فرق ومذاهب مسيحية وصل بعضها للآلاف (من كاثوليكية وأرثوذكسية وبروتستنتية والأخيرة خرج منها شهود يهوه والمرمون والمعمدانيين والأنغليكانيين. وغيرهم) ما هو إلا نتاج لهذه الوحدة والصراع في الدين الواحد.

- **محمد بن عبد الله وبعث الحنيفية البيضاء:**

في القرن السابع الميلادي قام الرسول محمد القرشي المكي ببعث دين إبراهيم الحنيف من جديد كدين يؤمن بإله واحد ويرفض الكهنوت ويؤمن بالقيامة والبعث والحساب

والعقاب. الخ وقد انتشر دينه في أصقاع الأرض كتيار جارف.

لم يُعنى القرآن بإكراه أحدٍ على قبول الدين الحنيف الجديد بل أعتمد محمد سياسة (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) كوسيلة لنشر الدين وتعامل مع أهل الذمة وفق قاعدة (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) و(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).

ونرى الخليفة عمر بن عبد العزيز يخاطب عامله على الكوفة عبد الرحمن بن نعيم ويوصيه بإنصاف أهل الذمة والمجوس والعمل على حمايتهم بقوله: "لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه (أبن الجوزي. ص٦٢).

وبالرغم من سهولة هذا الدين وعدم وجود طبقة كهنوت ولا واسطة فيه بين العبد وربه إلا أنه وبعد وفاة الرسول وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان حدث شقاق سياسي تطور إلى شقاق مذهبي يقال إن الرسول محمد كان قد تنبأ بحدوثه بأن تنقسم أمته إلى ٧٧ فرقة.

• الأمويون والعباسيون وسياسة الحفاظ على التنوع الثقافي في المشرق العربي:

في العصرين الأموي والعباسي، وفي ظل انفتاح المسلمين على ثقافات الحضارات الأخرى من سريان ورومان ويونان وفرس وهنود وأديان في سوريا والعراق ومصر وبلاد فارس خرجت العديد من المدارس الدينية والفلسفية (كإخوان الصفا والمعتزلة والقدرية والجبرية وغيرها الكثير، والشيعة الإمامية والشيعة العلوية (النصيرية) والدروز. واليزيدية والزيدية والبهائية والقادرية والشاوية والإباضية والمدارس الصوفية كالنقشبندية والشاذلية وغيرها). بعض هذه الفرق ليس لها علاقة بالإسلام إلا بالانتماء الاسمي فهي تؤمن بالتناسخ والأجرام السماوية ولكنها تفسر الآيات القرآنية وأحاديث الرسول بطريقة باطنية وهكذا فإننا أمام متنوع متحول ومتغير عبر القرون.

وقد تأثرت هذه المدارس بالمجوسية والهندوسية والأفلاطونية اليهودية[٨] وبنظرية الفيض الإلهي والناسوت واللاهوت، وتأثر أهل السنة بالأحاديث الإسرائيلية أو اليهودية وحدث اختلال في الدين وفي تفسير القرآن ما بين النص الظاهر والنص الباطن ومعاني الكلمات وحساب الجُمل، ومبدأ النقل وتحكيم العقل وغيرها.

لقد أنتجت هذه الأديان والمذاهب، أديانًا ومذاهب أخرى وسينتج عنها في المستقبل كما هو متوقع أديان ومذاهب أخرى ولن يتوقف هذا الشقاق في الدين والإيمان لأن الإنسان في تطوره وتفسيره للأمور يحاكي عصره، فما كان في الماضي لا يصلح للمستقبل ، قد يصلح

في الجوهر ولكنه في الشكل والتطبيقات لن يكون كذلك ومع تطور الفكر والاكتشافات والمخترعات سيحدث تطور أيضا في الفكر والمعتقدات والتفسيرات، فكما هي الحياة ، هكذا هي أيضا قوانين الحياة ومن بينها العقائد الإيمانية فالتطور أمر حتمي في الفكر الإنساني من إنسان الكرمل إلى إنسان عصرنا هذا.

• التنوع الثقافي والديني هو تراكم جيولوجي مشرقي:

من هذه القراءة التاريخية نلاحظ أن الأديان والمذاهب جميعها انبثقت من مصدرين أو ثلاثة مصادر رئيسية كلها مصادر محلية ضمن إقليم الشرق العربي القديم والحديث ربما باستثناء بعض ظواهر قليلة اعتمدت هي الأخرى في جوهرها على مصادر عروبية ،ومن ثم تراكمت هذه العقائد والأديان والمذاهب تراكما جيولوجيا وتعايشت إلى جانب بعضها البعض في جوار، ولم يخلُ الموضوع من صدام وصراع فكري فلسفي وأحيانا أخذ الشكل العنيف ولكن الدولة الإسلامية ومن بعدها الدولة القومية حافظت على وحدة الأديان والطوائف والمذاهب على أرضية المواطنة والعروبة.

وبالرغم من الاختلاف الديني والمذهبي بين أبناء الشعوب العربية فقد عاش الجميع قبل الاستعمار الغربي في وحدة وتآخي وتسامح المسجد إلى جانب الكنيسة، وعند الاحتلال الصليبي الغربي للمشرق بقي المسيحيون والمسلمون واليهود وحدة واحدة في صراعهم معه كاستعمار سياسي اقتصادي حيث لم يفرق الصليبيون بين أحدٍ من أبناء هذه الطوائف.

يشير مصطلح التنوع الثقافي عموما إلى الاختلافات القائمة بين المجتمعات الإنسانية في الأنماط الثقافية السائدة فيها ويتجلى هذا التنوع من خلال أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منها الإنسانية فهي مصدر للتبادل والإبداع، كما أن التنوع الثقافي ضروري للجنس البشري مثل ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة للكائنات الحية وبهذا المعنى فإن التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية وينبغي الحفاظ عليه والتأكيد عليه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل. وكما للتنوع الثقافي إيجابيات مثل تنوع العادات والتقاليد والقيم، فإن له أيضا سلبيات، تظهر عندما يتم استغلال هذه الفوارق في مشاريع لتفكيك المجتمع، بمعنى تفكيك وحدته ونسيجه الاجتماعي اعتمادا على التحريض الطائفي والتكفير والتشكيك بالولاء وغيره، وفي الكثير من الأحوال تلتقي أهداف المتعصبين الدينيين والطائفيين مع أهداف الدوائر الاستعمارية.

• استغلال الغرب للتنوع الثقافي المشرقي الإيجابي استغلالاً سلبيا خدمة لمصالحه:

إذ لطالما أدهش التنوع الثقافي (الديني والمذهبي والقومي) في عالمنا العربي مفكري الغرب والدوائر السياسية في الدول الاستعمارية وقد سعت هذه الدوائر لاستغلال هذا التنوع استغلالا سلبيا بحيث يكون مصدرا للنزاع وبالتالي تفكيك الأمة العربية إلى كيانات طائفية تعيش حالة دائمة من الصراع وتحقق مصالح الغرب ومآربه في المنطقة.

ومن ضمن هذه المصالح إفراغ هذه المنطقة من بُعدها الحضاري والثقافي المميز وجعلها تابعة للغرب ثقافيا وحضاريا، إن مشروع تقسيم الوطن العربي هو مشروع قديم حديث بدأ في اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ مرورا بوعد بلفور وانتهاء بما يحدث اليوم من مشاريع لإشعال الحروب المذهبية في سوريا وليبيا واليمن ولبنان.

وإذا نظرنا اليوم إلى بلدٍ كسوريا وهو البلد الأكثر تنوعا طائفياً في المنطقة فأننا سنجد أن القرى المسيحية والعلوية والسنية والشيعية والإسماعلية متجاورة، ونرى إلى جانب هذه المذاهب تنوعاً عرقياً وقومياً، كالأتراك والأكراد والشركس والأرمن والأشوريين والسريان وغيرهم، تجمعهم جميعاً روح الوحدة القومية والانتماء إلى سوريا العربية الموحدة، كيف لا ونحن نرى بين رموز أهل السنة السوريين: أبو خليل القباني، ومنى واصف، ويوسف العظمة، ومصطفى العقّاد، وبين رموز الأكراد السوريين: محمد كرد علي، عبد الرحمن آل رشي، إبراهيم هنانو ومن رموز أتراك سوريا: خليل مردم بيك، نزار قبّاني، أديب الشيشكلي ومن رموز شركس سوريا : عز الدين سطاس، ناديا خوست، جودت سعيد تسي،ومن رموز علويي سوريا: بدوّي الجبل، غسّان مسعود، صالح العلي ومن رموز مسيحيي سوريا: غادة شعاع، فارس خوري، حنّا مينا ،ومن رموز دروز سوريا: أسمهان، سميح شقير، سلطان باشا الأطرش، ومن رموز إسماعيليي سوريا: الكاتب السوري الكبير محمّد الماغوط ومن رموز شيعة سوريا : الفنان الكبير دريد لحام.

إنني وأنا أذكر هذه الأسماء أعلم علم اليقين أنك عزيزي القارئ، لم تكن تُميز كما أنا بين هذه الطوائف وأبنائها فالدين لله والوطن للجميع.

وقد حاول المستعمر الغربي الفرنسي (فترة الانتداب) تقسيم هذا البلد العربي إلى عدّة دول على أساس طائفيّ (دولتين سنيّتين: حلب ودمشق، ودولة جبل العلويين العلويّة، ودولة جبل الدروز الدرزيّة) ولكنهّا سرعان ما اتحدت وتوحدّت في دولة مدنية واحدة سميّت باسم الجمهوريّة العربيّة السوريّة.

وكذلك نرى الأمر ذاته في لبنان الذي هو جزء لا يتجزأ من الجغرافية السورية الفلسطينية حيث المسيحي الماروني الكاثوليكي والأرثوذكسي والبروتستانتي والأرمني والمسلم السني والشيعي والعلوي كلهم يعيشون في قرى وأحياء وبلدات متجاورة ومتنوعة، ومع أن فرنسا الانتدابية أرادت من خلال فصل لبنان ذو الأكثرية المسيحية المارونية في ذلك الوقت، عن الوطن الأم سوريا خلق دولة مسيحية -فينيقية إلى جانب دولة إسرائيل اليهودية وكان المخطط أن تكون هناك دولة درزية وأخرى علوية إلى جانب هاتين الدولتين فسياسة فرق تسد كانت هي السياسة المعتمدة لدى الدوائر الاستعمارية ولكن هذا المشروع فشل بسبب رفض هذه الطوائف السورية القبول بالتقسيم ،وفشل في لبنان كون التوازن الديمغرافي أختل لصالح المسلمين مع الوقت.

وإذا نظرنا للعراق العربي فسنجده كذلك حيث يعيش العرب والكلدان والأشوريون والأكراد، وحيث السنة والشيعة والأيزيديون والمسيحيون من كافة الطوائف والصابئة المندائية والحرانية أيضا يعيشون في جوار ووئام ومحبة وإخاء ولكن مع غزو العراق من قبل المحتل الأمريكي حصل شقاق وعملت الدوائر الغربية والإيرانية على تقسيم البلد إلى دول طوائف.

ليس معنى كلامنا هذا أن الناس كانوا يعيشون دون منغصات فلطالما وُجد المتعصبون في كل اتجاه وضمن كل طائفة ومذهب ومارست بعض الحكومات سياسات طائفية عنصرية ولكنها لم تأخذ يوما منحى من الصدام العنيف الشامل كما يحدث اليوم في سوريا والعراق بسبب عوامل أجنبية خارجية لا وطنية تتعلق بسياسات الدول لا الشعوب العربية وطوائفها وإذا كان الصراع الحالي مصدره الصراع الوهابي الشيعي الذي تقوده العربية السعودية من جهة وإيران من جهة أخرى فإن جذوره تمتد عميقا في المرحلة الاستعمارية الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

• الربيع العربي كمدمر للتنوع الثقافي الإيجابي:

كان المأمول فيما سمي بالربيع العربي أن يكون بداية جديدة لعالم عربي جديد يتنفس حرية ويعطي أملا لآلاف المقموعين والمقهورين من الأنظمة الدكتاتورية العربية، وأن يُنشئ ديمقراطية حقيقية تعتمد حرية الرأي والتعبير، ولكن ما حصل كان العكس، فقد حصل المواطن العربي في مقابل هبته الجماهيرية على "داعش" و"النصرة" المنبثقتين عن القاعدة، المنبثقة بذاتها عن أجهزة المخابرات الغربية وبتمويل من بعض الدول التابعة للغرب، أنتهى

الحلم العربي بيد قاطعي الرؤوس ومعذبي البشر بسبب الدين والطائفة والمذهب، أُعيد الإنسان العربي من حضارة القرن العشرين إلى مجاهل القرون الوسطى على أيدي شذاذ الآفاق، الذي عمل الغرب الاستعماري على تجميعهم كي ينفذ مخططاته في تقسيم المنطقة على أُسسٍ طائفية لينشئ فسيفساء دويلات صغيرة ، تكون إسرائيل الدولة اليهودية هي القوة العظمى الوحيدة المهيمنة عليها والقادرة على استمرارها ووجودها.

ومع أن هذا المخطط أصبح مفضوحا، إلا أن نتائجه مازالت غير واضحة في ظل غياب استراتيجية عربية واضحة للحفاظ على التنوع الثقافي وعلى المكتسبات الحضارية للأمة كصانعة للحضارة والدين والفلسفة ضمن إطار التعايش الفريد بين مجموعاتها الإثنية والثقافية والدينية والمذهبية.

- **مستقبل التنوع الثقافي في المشرق العربي:**

بالرغم من الألم والمعاناة والدموع التي نراها اليوم فإن مخطط الصهاينة والغربيين والمتعصبين الإسلاميين واللاهوتيين المؤمنين بعقيدة الهرمجدون فإن هذه الأمة، أمة التاريخ والحضارة لا بد أنها ستحافظ على تنوعها الثقافي وتُعيد بناء ذاتها من جديد على أُسسٍ أكثر صلابة، حتى لا تسمح بأن يتكرر هذا المشهد الدامي الجديد على ثقافة الأمة وغير المعبر عن جوهرها الأصيل في التعايش والتسامح والإخاء بين مكونات الوطن الواحد، والشعب الواحد الذي انقسمت عشائره بين الطوائف والأديان كحاجة حضارية بيولوجية تؤمن بالاختلاف والتنوع كما هي في السياسة كذلك هي في الدين والإيمان.

الهوامش:

١- ينطق البعض اسمه خطأ على أنه ملك ساليم ولكن أعمال الرسل في الأناجيل تقول انه كان في أول الأمر يسمى ملك البر ومن ثم سمي ملك السلام لا بدأة أيام له ولا نهاية حياة هو كاهن إيل العلي ولطالما تشبه به الأنبياء خصوصا داود عليه السلام في المزامير.

٢- راجع كتابنا في البدء كان إيل وكتابنا الأخر فك الشيفرة التوراتية.

٣- راجع الأناجيل.

٤- راجع سفر الخروج في العهد القديم.

٥- راجع الأناجيل وأقوال المسيح في هذا الأمر

٦- قرية تبعد عن الناصرة عشرة كيلومترات.

٧- راجع كتابنا في البدء كان إيل، إصدار دار الشروق ٢٠١٥.عمان.

٨- نسبة إلى أفلوطين السكندري اليهودي.